عبد الله بن المبارك

بقلم
المحدِّث الشيخ حبيب الرَّحمٰن الأعظمي

هو الإمام الحافظ العلاَّمة، شيخ الإِسلام، فخر المجاهدين، قدوة الزاهدين، عبد اللَّه بن المبارك بن واضح، أَبو عبد الرَّحمن الحنظلي، مولاهم المروزي، التركي الأب، الخوارزمي الأم، التاجر، السَّفّار، صاحب التصانيف النافعة، والرّحلات الشاسعة (بهذه النعوت والأوصاف، ذكره الذهبي إمام هذا الشأن[1]، ونعته الحافظ القرشي في الجواهر المضيئة بالإمام الربّاني الزاهد).

ميلاده وأصله:

وُلد هذا الإمام الجليل في دولة هشام بن عبد الملك[2] سنة ثمان عشرة ومائة أَو بعدها بعام[3]، وقد أدرك كثيراً من التابعين، وذلك

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٥٣.

(٢) مدة حكم هشام بن عبد الملك من سنة ١٠٥ ـ ١٢٥هـ.

(٣) في الأعلام للزركلي: ٤/ ١١٥: إن عبد اللَّه بن المبارك ولد سنة ١١٨هـ الموافق ٧٣٦م.

العصر الزاهي على ما صرَّح به الذهبي عصر كان فيه الإِسلام وأهله في عزٍّ تام، وعلم غزير، وأعلام الجهاد منشورة، والسّنن مشهورة، والبدع مكبوبة[1]، والقوّالون بالحقّ كثير، والعباد متوافرون، والناس في بلهنية[2] من العيش بالأمن، وكثرة الجيوش المحمّدية من أقصى المغرب، وجزيرة الأندلس إِلى قريب مملكة الخطا، وبعض الهند، وإِلى الحبشة، وكان هذا الوقت من الصالحين مثل إِبراهيم بن أدهم، وداود الطائي وسفيان الثوري وغيرهم، ومن الفقهاء: كأبي حنيفة، ومالك والأوزاعي[3].

روى ابن الجوزي في المنتظم[4] عن الحسن قال: إن أُمّ ابن المبارك كانت تركية، وكان الشبه لهم بيِّناً فيه، وكان ربما خلع قميصه فلا أرى على صدره وجسده كثير شعر[5].

وروى الخطيب عن ابن رزمة قال: سمعت ابن المبارك يقول: نظر أَبو حنيفة إِلى أَبي فقال: أدّت أمّه إليك الأمانة، وكان أشبه الناس بعبد اللَّه[6].

---

(١) مكبوبة: مصروعة، ومتساقطة ومتعثّرة.

(٢) البلهنية: الرخاء في العيش، يقال: هو في بلهنية من العيش أي: سعة ورخاء.

(٣) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٢٤.

(٤) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: كتاب لعبد الرَّحمن الجوزي.

(٥) المنتظم: ٤/ ١٠٩.

(٦) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٢.

طلبه للعلم وحفظه ومنزلته فيه:

قال أَبو أسامة: ما رأيت أطلب للعلم من عبد اللَّه بن المبارك.

قال عبدان: خرج عبد اللَّه إِلى العراق أول ما خرج سنة إحدى وأربعين.

قال أَحمد: لم يكن في زمانه أطلب للعلم منه، جمع أمراً عظيماً، ما كان أحد أقل سقطاً منه، كان رجلاً صاحب حديث، حافظاً وكان يحدِّث من كتاب.

قال ابن معين: كان كيِّساً مثبتاً ثقة، وكان عالماً صحيح الحديث، وكانت كتبه التي حدَّث بها عشرين ألفاً أَو واحداً وعشرين ألفاً.

قال إِبراهيم بن شماس: رأيت أفقه الناس، وأورع الناس، وأحفظ الناس. فأمّا أفقه الناس، فابن المبارك. وأمّا أورع الناس: ففضيل بن عياض. وأمّا أحفظ الناس: فوكيع بن الجراح[1].

وذكر ابن معين أصحاب سفيان الثوري، فبدأ بابن المبارك، قال هم خمسة: ابن المبارك، ووكيع، ويحيى، وعبد الرَّحمن، وأَبو نعيم.

قال جعفر بن عثمان: قلت ليحيى بن معين: إذا اختلف يحيى القطان ووكيع؟ قال: القول قول يحيى. قلت: إذا اختلف عبد الرَّحمن ويحيى؟ قال: يحتاج من يفضل بينهما. قلت: أَبو نعيم

---

(١) تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٢٤ و٣٨٥.

(٢) انظر: الفصل الثاني: باب قالوا في ابن المبارك من هذا الكتاب.

وعبد الرَّحمن؟ قال: يحتاج من يفضل بينهما. قلت: الأشجعي؟ قال: مات الأشجعي ومات حديثه. قلت: ابن المبارك؟ قال: ذاك أمير المؤمنين.

وقيل لابن معين: من كان أثبت في معمر، عبد الرزَّاق أَو عبد اللَّه بن المبارك؟ وكان متكئاً، فاستوى جالساً، وقال: كان ابن المبارك خيراً من عبد الرزَّاق وأهل قريته. ثم قال: تضم عبد الرزَّاق إِلى عبد اللَّه.

وقال إِبراهيم الحربي: إذا اختلف أصحاب معمر، فالقول قول ابن المبارك.

قال النضر بن مساور: قلت لابن المبارك: يا أبا عبد الرَّحمن! هل تحفظ الحديث؟ قال: فتغيّر لونه، وقال: ما تحفظت حديثاً، إنما آخذ الكتاب فأنظر فيه، فما أشتهيه علق بقلبي[1].

وقال صخر صديق ابن المبارك: كنا غلماناً في الكتّاب، فمررت أنا وابن المبارك ورجل يخطب، فخطب خطبة طويلة، فلما فرغ قال لي ابن المبارك: قد حفظتها، فسمعه رجل من القوم، فقال: هاتها، فأعادها ابن المبارك وقد حفظها[2].

وقال نعيم بن حمّاد: سمعت ابن المبارك قال: قال لي أَبي: لئن وجدت كتبك لأحرقنها، قال: وما عليَّ من ذلك، وهو في صدري.

---

(١) انظر القصة رقم (١١) من هذا الكتاب.

(٢) المرجع السابق القصة رقم (١٢).

وقال عبد الرَّحمن بن مهدي: الأئمة أربعة: سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وحمّاد بن زيد، وابن المبارك.

وقال أيضاً: كان ابن المبارك أعلم من سفيان.

وجاء رجل إلى الثوري، فسأله عن مسألة، فقال: من أين أنت؟ قال: من أهل المشرق. قال: أَوَليس عندكم أعلم أهل المشرق؟ قال: ومن هو يا أبا عبد اللَّه؟ قال عبد اللَّه بن المبارك. قال: وهو أعلم أهل المشرق؟ قال: نعم، وأهل المغرب[1].

وقال عبد الرَّحمن بن أَبي جميل: كُنَّا حول ابن المبارك بمكّة، فقلنا: يا عالم المشرق حدِّثنا، وسفيان قريب منا، فسمع، قال: ويحكم عالم المشرق والمغرب وما بينهما.

وقال ابن عيينة[2] يوماً بعد وفاة عبد اللَّه: رحم الله عبد اللَّه، ما خلف بخراسان مثله، فقالوا: لا يرضون، قال: ما يقولون؟ قالوا: يقولون: ولا بالعراق، فقال ابن عيينة ما أخلق، ما أخلق، ما أخلق، ثلاثاً.

ولما مات ابن المبارك، قال أمير المؤمنين هارون: مات سيّد العلماء.

وقال عمّار بن الحسن يمدح ابن المبارك:

---

(١) انظر: أقوال العلماء القسم (٢) من هذا الكتاب.

(٢) ابن عيينة: أي سفيان بن عيينة.

إذا سار عبد اللّه من مرو ليلة

فقد سار منها نورها وجمالها

إذا ذكر الأحبار في كل بلدة

فهم أنجم فيها وأنت هلالها

وقال علي بن المديني: انتهى العلم إلى رجلين: إلى عبد اللّه بن المبارك، ثم من بعده: يحيى بن معين.

وقال أيضاً: عبد اللّه بن المبارك هو أوسع علماً من عبد الرَّحمن بن مهدي، ويحيى بن آدم[1].

وقال القواريري: لم يكن ابن مهدي يقدم عليه وعلى مالك في الحديث أحداً[2].

تحرّيه في الإسناد ومذاكرته في العلم وتوقيره:

سُئل ابن المبارك: عمن نأخذ؟ قال: من طلب العلم لله، وكان في إسناده أشد قد يلقى الرجل ثقة وهو يحدّث على غير ثقة، ويلقى الرجل غير ثقة وهو يحدّث عن ثقة، ولكن ينبغي أن يكون ثقة عن ثقة.

وقال أَبو إِسحاق الطالقاني: سألت ابن المبارك عن الرجل يصلّي عن أبويه. فقال: من يرويه؟ قلت: شهاب بن خراش، قال: ثقة،

---

(١) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٢ ـ ١٦٩.

(٢) تهذيب التهذيب: ٣/ ٣٨٥.

عن من؟ قلت: عن الحجّاج بن دينار. قال: ثقة، عن من؟ قلت: عن النبي ﷺ. قال: بين النبي ﷺ وبين الحجّاج مفاوز[1] تنقطع فيها أعناق الإبل.

وقال نعيم بن حماد: ما رأيت ابن المبارك يقول قط: حدّثنا، كأنّه يرى أخبرنا أوسع، وكان لا يرد على أحد حرفاً إذا قرأ[2].

قال علي بن الحسن بن شقيق: قمت مع ابن المبارك ليلة باردة ليخرج من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث، وذاكرته، فما زال يذاكرني حتى جاء المؤذّن فأذَّنَ للفجر.

قال ابن أَبي الحواري: جاء رجل من بني هاشم ليسمع من ابن المبارك، فامتنع، فقال الهاشمي لغلامه: قم بنا، فلما أراد الركوب جاء ابن المبارك ليمسك بركابه. فقال: يا أبا عبد الرَّحمن! لا ترى أن تحدّثني وتمسك ركابي؟ قال: رأيت أن أذلّ لك بدني، ولا أذلّ لك الحديث[3].

وقال بشر بن الحارث: سأل رجل ابن المبارك عن حديث وهو يمشي، فقال: هذا من توقير العلم، قال بشر: فاستحسنته جداً[4].

---

(١) المفاوز: المفرد: المفازة: الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها، والموضع المهلك.
(٢) حلية الأولياء: ١٠/١٦٦.
(٣) انظر القصة رقم (١٥) من هذا الكتاب.
(٤) حلية الأولياء: ٨/١٦٥ و١٠/١٦٦.

حبّه للعلم واجتهاده في نشره تحديثاً وتصنيفاً وطريقته في التعليم والإرشاد:

قال ابن الضريس: قيل لعبد اللَّه بن المبارك: يا أبا عبد الرَّحمن: إلى متى تكتب هذا الحديث؟ فقال: لعل الكلمة التي أنتفع بها ما كتبتها بعد[١].

قال أَبو أسامة: مررت بعبد اللَّه بن المبارك بطرسوس، وهو يحدّث فقلت: يا أبا عبد الرَّحمن: إني لأنكر هذه الأبواب والتصنيف الذي وضعتموه ما هكذا أدركنا المشيخة، قال: فأضرب عن الحديث نحواً من عشرين يوماً، ثم مررت به وقد احتوشوه[٢] وهو يُحدِّث فسلّمت عليه، فقال: يا أبا أسامة! شهوة الحديث[٣].

وكان يقول: من بخل بالعلم ابتلي بثلاث: إمّا أن يموت فيذهب علمه، وإما ينسى، وإمّا يصحب فيذهب علمه[٤].

وكان يقول: أول منفعة الحديث أن يفيد بعضهم بعضاً[٥].

ومما يدل على حرصه للعلم أنّه قال: حملت عن أربعة آلاف شيخ، فرويت عن ألف منهم.

وقال الذهبي: حتى أنّه كتب عمّن هو أصغر منه.

---

(١) صفة الصفوة: ٤/١١٣.

(٢) احتوشوه: أحاطوا به وامتلأوا.

(٣) حلية الأولياء: ٨/١٦٥ و١٠/١٦٦.

(٤) المرجع السابق.

(٥) حلية الأولياء: ٨/١٦٥ و١٠/١٦٦.

وقال: حدّث عن خلق لا يحصون من أهل الأقاليم، فإنّه من صباه ما فتر عن السَّفر.

وقال: إنّه دوّن العلم في الأبواب، والفقه، وفي الغزو، والزهد، والرقائق، وغير ذلك[1].

وقال ابن سعد: طلب العلم، وروى رواية كثيرة، وصنّف كتباً كثيرة في أبواب العلم، وصنوفه، حملها عنه قوم وكتبها الناس عنهم، وقدم العراق، والحجاز، والشام، ومصر، واليمن، وسمع علماً كثيراً[2].

وقال ابن النديم: له كتاب السُّنن في الفقه، وكتاب التفسير، وكتاب التاريخ، وكتاب الزهد، وكتاب البرّ والصّلة.

قلت: وكان كبار العلماء من المحدِّثين وغيرهم يستفيدون من كتبه، وكان هو يحثّهم على أن يستفيدوا منه، فقد روى أَبو نعيم عن السندي بن أَبي هارون أنّه كان يقول: كنت أختلف مع ابن المبارك إلى المشايخ، فربما قلت له: يا أبا عبد الرَّحمن: ممن تستفيد؟ قال: من كتبنا[3].

وقال يحيى بن آدم: كنت إذا طلبت الدَّقيق من المسائل فلم أجده في كتب ابن المبارك أيست منه[4].

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٥٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ٧/ ٣٧٢.

(٣) حلية الأولياء: ٨/ ١٦٥.

(٤) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٥. وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٥٤.

وكان من دأبه رحمه الله أنّه كان لا يكتفي برواية الأحاديث وإلقاء الدروس فقط، بل كان ربما يوجّه أصحابه وتلاميذه إلى ما فيه رشدهم، ويدلّهم على ما فيه خيرهم، فكان يقول: الحديث مع الاثنين، أَو الثلاثة، أَو الأربعة، فإذا عظمت الحلقة فأنصت أَو انشز[1].

قال أَبو داود الطوسي: قلت لعبد اللّه بن المبارك: إنا نقرأ بهذه الألحان، فقال: إنما كُره لكم منها، إنا أدركنا القرّاء وهم يؤتون تسمع قراءتهم، وأنتم تُدعون اليوم كما يُدعى المغنّون[2].

وكان يقول: ليكن الذي تعتمدون عليه هذا الأثر، وخذوا عن الرأي ما يفسّر لكم الحديث.

وربما أدّب بعضهم بالهجران وترك الكلام. قال الحارث: أكلت عند صاحب بدعةٍ أكلة، فبلغ ذلك ابن المبارك فقال: لا كلّمتُك ثلاثين يوماً[3].

وحكى المروزي راوي كتاب الزهد عنه أنّه قال: كن محبّاً للخمول كراهية الشهرة، ولا تظهر من نفسك أنّك تحب الخمول فترفع نفسك، فإن دعواك الزهد من نفسك هو خروجك من الزهد، لأنّك تجرّ إلى نفسك الثناء والمدحة[4].

---

(١) حلية الأولياء: ١٠/ ١٦٥ ـ ١٦٩.
(٢) حلية الأولياء: ١٠/ ١٦٥ ـ ١٦٩.
(٣) المرجع السابق.
(٤) صفة الصفوة: ٤/ ١١٢.

محاسن آدابه:

قال إسماعيل بن علي بن إسماعيل: بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حماد بن زيد، مسلّماً عليه، فقال أصحاب الحديث لحمّاد بن زيد: يا أبا إسماعيل: تسأل أبا عبد الرَّحمن أن يحدِّثنا، فقال: يا أبا عبد الرَّحمن: أتحدّثهم فإنّهم قد سألوني، قال: سبحان الله يا أبا إسماعيل، أُحدِّث وأنت حاضر؟ قال: فقال: أقسمت لتفعلن. قال: فقال ابن المبارك: خذوا، حدَّثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد، فما حدّث بحرف إلاَّ عن حمّاد بن زيد[1].

وقال يحيى بن يحيى الأندلسي: كنّا في مجلس مالك، فاستؤذن لابن المبارك، فأذن، فرأينا مالكاً تزحزح له في مجلسه، ثم أقعده بلصقه، ولم أره تزحزح لأحد في مجلسه غيره، فكان القارىء يقرأ على مالك، فربما مرّ بشيء فيسأله مالك ما عندكم في هذا؟ فكان عبد اللّه يجيبه بالخفاء، ثم قام فخرج، فأعجب مالك أدبه، ثم قال لنا: هذا ابن المبارك فقيه خراسان[2].

وقال محمّد بن حميد: عطس رجل عند ابن المبارك، فقال له ابن المبارك: إيش يقول الرجل إذا عطس؟ قال: يقول: الحمد لله، قال: فقال له ابن المبارك: يرحمك الله. قال: فعجبنا كلّنا من حسن أدبه[3].

---

(١) انظر القصة رقم (١٠) من الكتاب.

(٢) تهذيب التهذيب: ٥/٣٨٦.

(٣) انظر القصة رقم (٦) من الكتاب.

وقد كانت هذه الآداب عنده من الدِّين بمكان، وكان يعتقدها مما لا بدّ منه لمن يمتّ إلى الإسلام بصلة، فقد ثبت أنّه كان يقول: كاد الأدب أن يكون ثلثي الدِّين[1]، وكان كأنه يتلهف فيقول: طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدّبون[2]، وأظنك إن تأمّلت في هذين الكلامين عرفت وجهة نظره في باب الأدب، وأدركت ما كانت منزلته عنده في الإسلام.

● **سيـرتـــه:**

ـ حبّه للخمول وإيثاره الخلوة:

روى ابن الجوزي عن الحسن أنّه قال: كانت دار ابن المبارك بمرو كبيرة، صحن الدار نحو خمسين ذراعاً في خمسين ذراعاً، فكنت لا تحب أن ترى في داره صاحب علم، أَو صاحب عبادة، أَو رجلاً له مروءة وقدر بمرو، إلاَّ رأيته في داره يجتمعون في كل يوم خلقاً يتذاكرون، حتى إذا خرج ابن المبارك انضمّوا إليه، فلما صار ابن المبارك بالكوفة نزل في دار صغيرة، وكان يخرج إلى الصَّلاة ثم يرجع إلى منزله، لا يكاد يخرج منه، ولا يأتيه كثير أحد، فقلت له: يا أبا عبد الرَّحمن: ألا تستوحش ها هنا مع الذي كنت فيه بمرو؟ فقال: إنما فررت من مرو من الذي تراك تحبه، وأحببت ما ها هنا للذي أراك تكره لي، فكنت بمرو لا يكون أمر إلاَّ أتوني فيه، ولا مسألة إلاَّ قالوا: اسألوا ابن المبارك، وأنا ها هنا في عافية من ذلك.

---

(١) صفة الصفوة: ٤/ ١٢٠.

(٢) حلية الأولياء: ٨/ ١٦٩.

قال: وكنت مع ابن المبارك يوماً، فأتينا على ساقية والناس يشربون منها، فدنا ليشرب ولم يعرفه الناس، فزحموه ودفعوه، فلما خرج قال لي: ما العيش إلاَّ هكذا، يعني حيث لم نعرف ولم نوقر[1].

وقال نعيم بن حماد: كان عبد اللَّه بن المبارك يكثر الجلوس في بيته فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ.

وعن شقيق بن إبراهيم قال: قال: قيل لابن المبارك: إذا صليت معنا لم تجلس معنا؟ قال: أذهب أجلس مع الصحابة والتابعين، قلنا له: ومن أين الصحابة والتابعون؟ قال: أذهب أنظر في علمي فأدرك آثارهم وأعمالهم، ما أصنع معكم أنتم تغتابون الناس، فإذا كانت سنة مائتين فالبعد من كثير من الناس أقرب إلى الله، وفرّ من الناس كفرارك من أسد، وتمسّك بدِينك يسلم لك[2].

ـ تقواه وخشيته:

قال الحسن: رأيت في منزل ابن المبارك حَمَاماً طائرة، فقال ابن المبارك: قد كنا ننتفع بفراخ هذه الحمام فليس ننتفع بها اليوم. قلت: ولم ذلك؟ قال: اختلطت بها حمام غيرها فتزاوجت بها فنحن نكره أن ننتفع بشيء من فراخها من أجل ذلك[3].

---

(١) صفة الصفوة: ٤/ ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) صفة الصفوة: ٤/ ١١١.

(٣) انظر القصّة رقم (١٩) من الكتاب.

وقال علي بن الحسن بن شقيق: سمعت ابن المبارك يقول: لأن أردّ درهماً من شبهة أحب إليّ من أن أتصدّق بمائة ألف ومائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف[1].

وقال الحسن بن عرفة: قال لي ابن المبارك: استعرت قلماً بأرض الشام، فذهب عليّ أن أردّه إلى صاحبه، فلما قدمت مرو نظرت فإذا هو معي، فرجعت يا أبا علي أرض الشام حتى رددته على صاحبه.

وعن القاسم بن محمّد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك، فكثيراً ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل علينا؟ حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة، إن كان يصلي، إنا لنصلي، وإن كان يصوم، إنّا لنصوم، وإن كان يغزو فإنّا لنغزو، وإن كان يحج، إنا لنحج، قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت إذا طفىء السِّراج، فقام بعضنا فأخذ السِّراج وخرج يستصبح، فمكث هنيهة ثم جاء بالسِّراج، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي بهذه الخشية فُضِّل هذا الرجل علينا، ولعلّه حين فقد السِّراج فصار إلى ظلمة ذكر القيامة[2].

وعن نعيم بن حماد قال: كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق

---

(١) صفة الصفوة: ٤/ ١١٤.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ١٢٠.

فكأنّه بقرة منحورة من البكاء لا يجترىء أحد منا أن يدنو منه أو يسأله عن شيء[1].

ـ تـواضعـه:

قال الحسن: بينا هو بالكوفة يُقرأ عليه كتاب المناسك انتهى إلى حديث وفيه: قال عبد اللّه وبه نأخذ، فقال من كتب هذا من قولي؟ قلت: الكاتب الذي كتبه، فلم يزل يحكّه بيده حتى دَرَسَ. ثم قال: ومن أنا حتى يكتب قولي[2].

قال: وزوّج النضر بن محمّد ولده، دعى ابن المبارك، فلما جاء قام ابن المبارك ليخدم الناس، فأبى النضر أن يدعه وحلف عليه حتى جلس[3].

ـ كرمه ومروءته:

وكان رحمه الله يقول: إذا عرف الرجل قدر نفسه يصيِّر نفسه أذلّ من الكلب، قال علي بن الحسن بن شقيق: كان ابن المبارك إذا كان وقت الحجّ اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو، فيقولون: نصحبك يا أبا عبد الرَّحمن! فيقول لهم: هاتوا نفقاتكم، فيأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق، ويقفل عليها ثم يكتري لهم، ويخرجهم من مرو إلى بغداد،

---

(١) المرجع السابق: ٤/ ١١٢.

(٢) انظر القصّة رقم (٢٠) من الكتاب.

(٣) صفة الصفوة: ٤/ ١١٠.

فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلواء، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأكمل مروءة حتى يصلوا إلى مدينة الرَّسول ﷺ، فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجل منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طُرفها؟ فيقول: كذا، ثم يخرجهم من المدينة، فإذا وصلوا إلى مكّة. فقضوا حوائجهم قال لكل رجل منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكّة؟ فيقول: كذا وكذا. فيشتري لهم، ويخرجهم من مكّة فلا يزال ينفق عليهم حتى يصيروا إلى مرو، فإذا وصلوا إلى مرو، جصَّصَ أبوابهم ودورهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام صنع لهم وليمة وكساهم فإذا أكلوا وشربوا دعا بالصندوق ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صرّته بعد أن كتب عليها اسمه[1]. قال أَبي: أخبرني خادمه أنّه عمل آخر سفرة سافرها دعوة فقدَّم إلى الناس خمسة وعشرين خواناً[2] فالوذج[3].

وقال محمّد بن عيسى: كان عبد اللَّه بن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس، وكان ينزل الرقّة في خان، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، قال: فقدم الرّقّة مرّة فلم ير ذلك الشاب، وكان مستعجلاً فخرج في النفير. فلما قفل من غزوته ورجع إلى الرّقة، سأل عن الشاب فقالوا: إنّه محبوس لدَين ركبه،

---

(١) انظر القصّة رقم (٣) من الكتاب.

(٢) الخوان: ما يوضع عليه الطعام ليؤكل.

(٣) الفالوذج: حلواء تعمل من الدّقيق والماء والعسل، وتصنع الآن من النشادر والماء والسكر.

فقال عبد اللَّه: وكم مبلغ دَينه؟ قالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دُلَّ على صاحب المال، فدعا به ليلاً ووزن له عشرة آلاف درهم، وحلفه أن لا يخبر أحداً ما دام عبد اللَّه حياً، وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس. وأدلج[1] عبد اللَّه، وأخرج الفتى من الحبس، وقيل له: عبد اللَّه بن المبارك كان ها هنا، وكان يذكرك وقد خرج، فخرج الفتى في أثره، فلحقه على مرحلتين أَو ثلاث من الرَّقّة، فقال: يا فتى: أين كنت لم أرك في الخان؟ قال: نعم يا أبا عبد الرَّحمن، كنت محبوساً بدين، قال: وكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل وقضى دَيني. ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس، فقال له عبد اللَّه: يا فتى أحمد الله على ما وفق لك من قضاء دَينك، فلم يخبر ذلك الرجل أحداً إلاَّ بعد موت عبد اللَّه[2].

وقال سلمة بن سليمان: جاء رجل إلى عبد اللَّه بن المبارك فسأله أن يقضي دَيناً عليه، فكتب إلى وكيل له، فلما ورد عليه الكتاب قال له الوكيل: كم الدَّين الذي سألت فيه عبد اللَّه أن يقضيه عنك؟ قال: سبعمائة درهم، فكتب إلى عبد اللَّه إن هذا الرجل سألك أن تقضي عنه سبعمائة درهم، فكتبت له بسبعة آلاف، وقد فنيت الغلاّت، فكتب إليه عبد اللَّه: إن كانت الغلاّت قد فنيت فإن العمر أيضاً قد فني، فأجر له ما سبق به قلمي[3].

---

(١) أدلج: سار ليلاً.

(٢) انظر القصّة رقم (٨) من الكتاب.

(٣) انظر القصّة رقم (٧) من الكتاب.

وقال إسماعيل بن عياش: حدَّثني أصحابي أنّه صحبوه من مصر إلى مكّة فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم.

وحكى ابن كثير أن سفرته كانت تحمل على بعير وحدها وفيها من أنواع المأكول من اللّحم، والدجاج، والحلو، وغير ذلك، ثم يطعم الناس وهو الدّهر صائم في الحر الشديد.

ـ إنفاقه على العلماء والفقراء وتكسّبه لهم:

قال علي بن الحسن بن شقيق: بلغنا أنّه قال للفضيل بن عياض: لولا أنت وأصحابك[1] ما اتّجرت، قال: وكان ينفق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم[2].

وقال حبان بن موسى: عوتب ابن المبارك في ما يفرّق من المال في البلدان ولا يفعل في أهل بلده كذلك، فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث وأحسنوا الطلب، فاحتاجوا فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعنّاهم بثُّوا العلم لأمّة محمّد ﷺ، ولا أعلم بعد النبوَّة أفضل من بثّ العلم[3].

وقال علي بن الفضيل: سمعت أَبي وهو يقول لابن المبارك: أنت تأمرنا بالزهد والتقلّل، والبلغة، وتراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا؟ فقال ابن المبارك: يا أبا علي!

---

(١) يعني: سفيان الثوري وسفيان بن عيينة.

(٢) تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٦، وصفة الصفوة: ٤/ ١١٧.

(٣) صفة الصفوة: ٤/ ١١٣ وتاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٠.

إنما أفعل ذا لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربّي، لا أرى لله حقّاً إلاّ سارعت إليه حتى أقوم به، فقال له الفضيل: يا ابن المبارك: ما أحسن ذا، إن تمَّ ذا[1].

وروى الخطيب أن ابن المبارك خرج من بغداد يريد المصيصة[2]، فصحبه الصوفية، فقال لهم: أنتم لكم أنفس تحتشمون أن ينفق عليكم، يا غلام هات الطست، فألقى على الطست منديلاً، ثم قال: يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه، قال: فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم والرجل يلقي عشرين، فأنفق عليهم إلى المصيصة، فلما بلغ المصيصة، قال: هذه بلاد نفير، فنقسم ما بقي، فجعل يعطي الرجل عشرين ديناراً، فيقول: يا أبا عبد الرَّحمن! إنما أعطيت عشرين درهماً، فيقول: وما تنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته[3].

وقال العيشي: ثنا الحمادان أن ابن المبارك كان يتجر ويقول: لولا خمسة ما اتجرت: السفيانان، وفضيل، وابن السماك، وابن علية، فيصلهم، فقدم سنة، فقيل له: قد ولي ابن علية القضاء، فلم يأته ولم يصله، فركب ابن علية إليه فلم يرفع به رأساً، فانصرف، فلما

---

(١) انظر القصّة رقم (٩) من الكتاب.

(٢) المصيصة: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام، بين أنطاكية، وبلاد الروم، وكانت من الأماكن التي يرابط بها المسلمون قديماً. كانت تشتهر بصناعة الغراء وتحمل منها إلى الآفاق.

(٣) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٧.

كان من غد كتب إليه رقعة يقول: قد كنت منتظراً لبرّك وجئتك فلم تكلمني، فما رأيته مني؟ فقال ابن المبارك: يأبى هذا الرجل إلاّ أن تقشر له العصاء، ثم كتب إليه[1]:

يا جاعل العلم له بازياً ... يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها ... بحيلة تذهب بالدِّين
فصرت مجنوناً بها بعدما ... كنت دواء للمجانين
أين رواياتك فيما مضى ... عن ابن عون وابن سيرين
أين رواياتك في سردها ... في ترك أبواب السلاطين
إن قلت أكرهت فذا باطل ... زلّ حمار العلم في الطِّين

فلما وقف على هذه الأبيات قام من مجلس القضاء، فوطىء بساط الرشيد، وقال: الله، الله.. أرحم شيبتي، فإني لا أصبر على القضاء، قال: لعل هذا المجنون أغراك. ثم أعفاه، فوجه إليه ابن المبارك بالصرّة.

وقيل: إن ابن المبارك إنما كتب إليه بهذه الأبيات لما ولي صدقات البصرة، وهو الصحيح[2].

ـ جمعه لصنوف الفضائل:

قال إِسماعيل بن عياش: ما على وجه الأرض مثل عبد اللّه بن

---

(١) انظر القصيدة رقم (٥٥) في الكتاب.

(٢) تهذيب التهذيب: ١/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

المبارك ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلاَّ وقد جعلها الله في عبد اللَّه بن المبارك[1].

وقال الحسن بن عيسى: اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك مثل الفضل بن موسى، ومخلد بن حسين وغيرهما، فقالوا: تعالوا حتى نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: جمع العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والشعر، والفصاحة، والزهد، والورع، والإنصات، وقيام الليل، والعبادة، والحجّ، والغزو، والفروسية، والشجاعة، والشدّة في بدنه، وترك الكلام في ما لا يعنيه، وقلّة الخلاف على أصحابه[2].

قال ابن حبان في الثقات: كان فيه خصال لم تجتمع في أحد من أهل العلم في زمانه من الأرض كلّها[3].

فصاحته:

قال ابن جريج: ما رأيت عراقياً أفصح منه[4].

وقال العمري الزاهد فيه: فصيح اللسان إلاَّ أن اللّغة شرقية[5].

---

(١) صفة الصفوة: ٤/ ١١٩ وتاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٧.
(٢) انظر فصل: قالوا في عبد اللَّه بن المبارك في هذا الكتاب.
(٣) تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٦ والفوائد البهية: ١٤٠.
(٤) تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٦.
(٥) حلية الأولياء: ٨/ ١٦٢.

شدّة بأسه في مراكز الجهاد:

قال عبدة بن سليمان: كنا في سرية مع عبد اللّه بن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصّفّان، خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنهُ طعنة فقتله ثم آخر فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فطارد ساعة فطعنه فقتله فازدحم الناس عليه، وكنت فيمن ازدحم عليه فإذا هو يلثم وجهه بكمّه، فأخذت بطرف كمّه فمددته فإذا هو عبد اللّه بن المبارك، فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يُشنّع علينا[1].

تقدّمه على أقرانه وإطباق الناس على إمامته وثناء الأئمّة عليه[2]:

قال الأوزاعي لعبد الرَّحمن بن يزيد الجهضمي: رأيت ابن المبارك؟ قال: لا، قال: لو رأيت لقرّت عينك.

وقال ابن أبي رزمة: قال لي شعبة: عرفت ابن المبارك؟ قال: نعم، قال: ما قدم علينا من ناحيتكم مثله.

وقال إسماعيل بن عياش: ما على وجه الأرض مثل عبد اللّه بن المبارك.

وقال أبو أسامة: كان ابن المبارك في أصحاب الحديث مثل أمير المؤمنين في الناس.

---

(١) انظر القصّة رقم (١٤) من الكتاب.

(٢) انظر الفصل الثاني: قالوا في عبد اللّه بن المبارك من الكتاب.

وقال محمّد بن عبد الوهّاب الفراء: ما أخرجت خراسان مثل هؤلاء الثلاثة: ابن المبارك، والنضر بن شميل، ويحيى بن يحيى.

وقال ابن مهدي: ما رأيت رجلاً أعلم بالحديث من الثوري، ولا أحسن عقلاً من مالك، ولا أقشف من شعبة، ولا أنصح لهذه الأمّة من عبد اللّه بن المبارك.

وقيل لابن مهدي مرة: أيهما أفضل عندك، ابن المبارك أَو سفيان الثوري؟ فقال: ابن المبارك، فقيل: إنّ الناس يخالفونك، قال: إن الناس لم يجرّبوا.

وقدم ابن مهدي بغداد في بيع دار له، فاجتمع إليه أصحاب الحديث، فقالوا له: جالست سفيان الثوري وسمعت من عبد اللّه فأيهما أرجح؟ فقال: ما تقولون؟ لو أن سفيان جهد جهده على أن يكون يوماً مثل عبد اللّه لم يقدر.

وقال سفيان نفسه: إني لأشتهي من عمري كلّه أن أكون سنة واحدة مثل عبد اللّه بن المبارك، فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام.

وكان أَبو إِسحاق الفزاري يقول: ابن المبارك إمام المسلمين أجمعين، قال المسيب بن واضح: ورأيت أبا إسحاق بين يدي ابن المبارك قاعداً يسائله.

قلت: وهل تدري من أَبو إِسحاق هذا؟ من كان الأوزاعي يقول فيه: إنه والله خير مني، وقال أَبو داود الطيالسي: ما على وجه الأرض أفضل منه.

وقال ابن عيينة: نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك، فما رأيت لهم فضلاً إلاَّ بصحبتهم النبي ﷺ وغزوهم معه[١].

ونعي إليه ابن المبارك فقال: لقد كان فقيهاً، عالماً، عابداً، زاهداً، شيخاً، شجاعاً، شاعراً[٢].

ونعي إلى الفضيل بن عياض فقال: رحمه الله أما إنّه ما خلف بعده مثله[٣].

وقال شعيب بن حرب: ما لقي ابن المبارك رجلاً إلاَّ وابن المبارك أفضل منه[٤].

وقال الحاكم: هو إمام عصره في الآفاق، وأولاهم بذلك علماً، وزهداً، وشجاعة، وسخاء[٥].

وقال النسائي: لا نعلم في عصر ابن المبارك أجلّ من ابن المبارك، ولا أعلى منه، ولا أجمع لكل خصلة محمودة منه[٦].

وقال الأسود بن سالم: إذا رأيت الرجل يغمز ابن المبارك فاتّهمه على الإسلام.

---

(١) صفة الصفوة: ٤/ ١١٣ وتاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٣.
(٢) تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٥.
(٣) صفة الصفوة: ٤/ ١١١.
(٤) تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٤.
(٥) المرجع السابق: ٥/ ٣٨٦.
(٦) المرجع السابق: ٥/ ٣٨٧.

وقال الخليلي في الإرشاد: ابن المبارك الإمام المتفق عليه، له من الكرامات ما لا يحصى.

وقال أَبو عمر بن عبد البر: أجمع العلماء على قبوله، وجلالته، وإمامته، وعدله[1].

وقال: لا أعلم أحداً من الفقهاء سلم أن يقال فيه شيء إِلاَّ عبد اللَّه بن المبارك[2].

وقال أشعث بن شعبة المصيصي: قدم هارون الرشيد الرّقّة، فانجفل الناس خلف عبد اللَّه بن المبارك، وتقطعت النعال، وارتفعت الغبرة، وأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فلما رأت الناس قال: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان، قدم الرّقّة يقال له عبد اللَّه بن المبارك، فقالت: هذا والله الملك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس، إِلاَّ بشرط وأعوان[3].

وقال الذهبي في تذكرة الحفّاظ: والله إنّي لأحبّه وأرجو الخير بحبّه لما منحه الله من التقوى، والعبادة، والإخلاص، والجهاد، وسعة العلم، والإتقان، والمواساة، والفتوة، والصفات الحميدة[4].

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٩.

(٢) الجواهر المضيئة: ١/ ٢٨٢.

(٣) صفة الصفوة: ٤/ ١١٢.

(٤) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٥٤.

غرر كلماته[1]:

قيل لابن المبارك: ما التواضع؟ قال: التكبّر على الأغنياء.

وكان يقول: لا يقع موقع الكسب على العيال شيء، ولا الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ.

وعن عبيد اللَّه بن عمر السرخسي قال: قال لي ابن المبارك: ما أعياني شيء كما أعياني أني لا أجد أخاً في الله.

وعن فضيل بن عياض قال: سُئل ابن المبارك من الناس؟ قال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهّاد. قيل: فمن السفلة؟ قال: الذي يأكل بدَينه.

وقال رجل لابن المبارك: هل بقي من ينصح؟ فقال: هل تعرف من يقبل.

وقال: كاد الأدب يكون ثلثي الدين.

وقال: طلبنا العلم للدنيا، فدلنا على ترك الدنيا.

وقال: إن الصَّالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً، وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلاَّ على كره ينبغي لنا أن نكرهها.

---

(١) راجع كل هذا في الفصل الأول من كتابنا: من أقوال عبد اللَّه بن المبارك، وفي صفة الصفوة: ٤/ ١١٤ ـ ١٢١.

وقام رجل إلى ابن المبارك فقال: يا أبا عبد الرَّحمن! في أي شيء أجعل أفضل يومي، في تعلّم القرآن، أَو في طلب العلم؟ فقال: هل تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك؟ قال: نعم. قال: فاجعله في طلب العلم الذي تعرف به القرآن[1].

وسئل عبد اللَّه بن المبارك: ما ينبغي للعالم أن يتكرّم عنه؟ قال: ينبغي أن يتكرَّم عما حرّم الله تعالى عليه، ويرفع نفسه عن الدنيا، فلا تكون منه على بال.

وقال: زيادة آخرتكم لا تكون إلاَّ بنقصان دنياكم، وزيادة دنياكم لا تكون إلاَّ بنقصان آخرتكم.

وقال: حب الدنيا في القلب، الذنوب احتوشته، فمتى يصل الخير إليه.

وقال: أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يطعموا أطيب ما فيها، قيل له: ما أطيب ما فيها؟ قال: المعرفة بالله عزّ وجلّ.

وفاة ابن المبارك:

قال الحسن بن الرّبيع: سمعت ابن المبارك حين حضرته الوفاة وأقبل نصير يقول: يا أبا عبد الرَّحمن! قل: لا إله إلاَّ الله، فقال له: يا نصير، قد ترى شدّة الكلام عليّ، فإذا سمعتني قلتها فلا تردها عليّ

(١) حلية الأولياء: ٨/ ١٦٥.

حتى تسمعني قد أحدثت بعدها كلاماً، فإنما كانوا يستحبون أن يكون آخر كلام العبد ذلك[1].

قال عبدان والحسن بن الرّبيع: مات ابن المبارك في رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة.

قال محمّد بن فضيل بن عياض: رأيت عبد اللَّه بن المبارك في المنام، فقلت: أي الأعمال وجدت أفضل؟ قال: الأمر الذي كنت فيه، قلت: الرباط والجهاد؟ قال: نعم. قلت: وأي شيء صنع بك؟ قال: غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة، وكلّمتني امرأة من أهل الجنّة أَو امرأة من الحور العين.

خادم السُّنّة المطهرة

حبيب الرَّحمن الأعظمي

---

(١) انظر القصّة رقم (٢٣) من الكتاب.

obeikandl.com